# {إن من أحبكم إلي وأقربكم مني مجلساً يوم القيامة أحاسنكم أخلاقاً} رواه الترمذي

إعداد

د. ناجي بن محمد بن وقدان

المدينة النبوية

١٤٤١/٥/٧هـ

من العجيب في حياة كثير من المسلمين اليوم أن تراه كثير صلاة وصيام وعبادة وقربة ،ولكن فاته ما تعلوا به الدرجة،وتسموا به المنزلة ،ويعظم به البر، وهو حسن الخلق، المعدن النفيس،والجوهر الثمين، الذي ترتفع به النفوس إلى أعالي الجنان،وفردوس الرحمن،وليس شيء أثقل في ميزان العبد يوم القيامة من ذكر الله وحسن الخلق، صاحبه أقرب الناس مجلسا لرسول الله صلى الله عليه وسلم يوم القيامة.

إن حسن الخلق ليس في ابسامة عابرة، ولا استكانة ضعيفة، وإنما مجال واسع، وبحر متلاطم من الأقوال والأفعال، فالصبر والبذل والعطاء وحسن العشرة والمودة وحسن الجوار والكلمة الطيبة والعون وبذل الجاه والإصلاح بين الناس وكف الأذى وكظم الغيظ والحِلم والأناة والكرم والسخاء والنصيحة وحسن المعاملة ولين الجانب والرأفة والتسامح والرحمة بالنساء والأطفال وكبار السن والعجماوات وغيرها كثير، كلها أخلاق إسلامية حث عليها الشرع الحنيف.

وغاية الأخلاق في الإسلام بناء مفهوم ( التقوى ) الذي يجعل أداء العمل الطيب واجباً محتماً ويجعل تجنب العمل الضار واجباً محتماً، ويجعل الخوف من الله أقوى ، فالقيم الأساسية في الإسلام ثابتة لا تتغير لأنها صالحة لكل زمان ومكان وإن الأخلاق والعقيدة والشريعة ليست من صنع الإنسان ولذلك فهي قائمة على الزمان ما بقي الزمان على اختلاف البيئات والعصور وإن الحق سيظل هو الحق لا يتغير.

ولذلك فإن أبرز قواعد الإسلام هو ( ثبات القيم ) وبالتالي (ثبات الأخلاق) وإن الالتزام الخلقي هو قانون أساسي يمثل المحور الذي تدور حوله القيم الأخلاقية فإذا زالت فكرة الالتزام قضي على جوهر الهدف الأخلاقي، ذلك انه إذا انعدم الالتزام انعدمت المسؤولية وإذا انعدمت المسؤولية ضاع كل أمل في وضع الحق في نصابه .

والإسلام يحمل قواعد نظرية أخلاقية متكاملة تقود إلى الفضائل في أحسن ما تكون عليه، وهذا ينبع من غاية رسالة الإسلام التي هي رحمة للعالمين، ولهذا لم ترد كلمة" خُلُق" في القرآن الكريم إلا مرتين فقط:

الأولى : في رد قوم هود عليه السلام عندما دعاهم الى الله وعدم التعلق بالدنيا والتطاول بالعمران، وأن يعبدوا الله فذلك أقوم وافضل وأنجى لهم فأجابوه وفق ما جاء في الآية الكريمة { إِنْ هَذَا إِلَّا خُلُقُ الْأَوَّلِينَ} (١٣٧) الشعراء، فردهم هذا يتضمن مقولة مفادها : أن هذا الذي جئتنا به، هو سنة وعادة قوم سبقوك في الظهور، وادّعوا مثل دعواك.

وفي تلمس معاني هذه الآية الكريمة يتبين لنا أن دعوة الأنبياء والرسل كانت دوما تعتمد خطاً واحدا في منهاجها الأخلاقي الذي يقود إلى صلاح المجتمعات، وصلاح الأفراد.

الثانية : في قوله تعالى : { وَإِنَّكَ لَعَلى خُلُقٍ عَظِيمٍ} القلم ٤،جاء الخطاب من الله تعالى إلى النبي محمد صلى الله عليه وسلم ، وهو من كانت سيرته سنة يقتدى بها لتؤكد كتب السيرة انه لم يكن لبشر ما كان للنبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم من الأخلاق، فقد كان أحسن الناس خلقاً،وأكثرهم محبة ورأفة ورحمة ،ولذلك لما سئلت عائشة رضي الله عنها عن خلقه صلى الله عليه وسلم (قالت كان خلقه القرآن) رواه مسلم، فدلت الآية على أن المتصف بما في القرآن من مكارم الأخلاق أنه يكون على خلق عظيم وذلك لعظم ما في القرآن من مكارم الأخلاق.

ولذلك جاءت نصوص الكتاب والسنة بالحث على دماثة الأخلاق، ولين الجانب،وطيب المعشر، ومن ذلك قول الله عز وجل آمرا نبيه صلى الله عليه وسلم{ خذ العفو وأمر بالعرف وأعرض عن الجاهلين} الأعراف ١٩٩، ومن ذلك قوله تعالى{ وَإِنْ طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَمَسُّوهُنَّ وَقَدْ فَرَضْتُمْ لَهُنَّ فَرِيضَةً فَنِصْفُ مَا فَرَضْتُمْ إِلَّا أَنْ يَعْفُونَ أَوْ يَعْفُوَ الَّذِي بِيَدِهِ عُقْدَةُ النِّكَاحِ وَأَنْ تَعْفُوا أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى وَلَا تَنسَوْا الْفَضْلَ بَيْنَكُمْ إِنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ(٢٣٧)} البقرة، فتضمنت الآية الكريمة الحث على مكارم الأخلاق من الأمر بالعفو والنهي عن نسيان الفضل، وفي قوله جل وعلا{ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ أَنْ صَدُّوكُمْ عَنْ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ أَنْ تَعْتَدُوا وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ} المائدة٢ ،فجاء في الآية الكريمة من مكارم الأخلاق كالأمر بأن تعامل من عصى الله فيك بأن تطيع الله فيه، والأمر بالعدل، والتعاون على البر والتقوى، والنهي عن التعاون على الإثم والعدوان، وقال سبحانه{وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَبِذِي الْقُرْبَى

وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَى وَالْجَارِ الْجُنُبِ وَالصَّاحِبِ بِالْجَنْبِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَنْ كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا} النساء ٣٦ ، فهذه الآية الكريمة تضمنت من الأخلاق الفاضلة كالأمر بالإحسان إلى المحتاجين والضعفاء والإحسان للجار، والجيران في الإسلام ثلاثة ، وهم الجار الكافر المعاهد والذمي، فله على المسلمين حسن الجوار والبر والبذل له، والجار المسلم فله حق الإسلام وحق الجوار ،والجار من ذوي القربي فله حق الإسلام وحق الجوار وحق الصلة ،وقال عز وجل {إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَى وَيَنْهَى عَنْ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ} النحل ٩٠ ،وقال تعالى{ وَلَا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ} الأنعام ١٥١ ، وقال تعالى {إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَى أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ إِنَّ اللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُمْ بِهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ سَمِيعًا بَصِيرًا} النساء ٥٨ وقال جل وعلا {يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِنْ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ وَلَا تَجَسَّسُوا وَلَا يَغْتَبْ بَعْضُكُمْ بَعْضًا أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَحِيمٌ} الحجرات ١٢ ، كل هذه الآيات وما سبقها تأمر وتحث على مكارم الأخلاق.

ومن السنة الشريفة ما صح عن النبي صلى الله عليه وسلم في الحث على كل خلق كريم، فلقد جاءت السنة مبينة الأجرَ العظيم لمن اتصف بمكارم الأخلاق، فعن النواس بن سمعان رضي الله عنه، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال (البر حُسن الخُلق، والإثم ما حاك في نفسك وكرهت أن يطلع عليه الناس) أخرجه مسلم.فوصف هنا حسن الخلق بالبر، والبر جامع لخصال الخير والمعروف، والأثم كلمة جامعة لكل شر وقبح صغيره وكبيره. وعن أبي الدرداء رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (ما من شيء أثقل في ميزان العبد يوم القيامة من حسن الخلق ، وإن الله يبغض الفاحش البذيء) رواه الترمذي. وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي صلَّى الله عليه وسلَّم سئل عن أكثر ما يُدخل النَّاسَ الجنةَ، فقال: (تقوى الله وحسن الخلق) رواه الترمذي. وعن عائشة رضي الله عنها أن النبي – صلَّى الله عليه وسلَّم قال(إنَّ المؤمن لَيدركُ بحسنِ خلقه درجةَ الصائم القائم) رواه الترمذي. وعنها رضي الله عنها أن النبي صلى الله عليه وسلم قال (إنَّ

الرفق لا يكون في شيء إلازانه، ولا ينزعُ من شيء إلا شانه) رواه مسلم، وقال أيضا: (إنَّ الله رفيقٌ يحب الرفقَ في الأمرِ كلِّه) متفق عليه. وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رجلا جاء إلى النبي صلى الله عليه وسلم، فقال: يا رسول الله، أوصني، فقال صلَّى الله عليه وسلَّم (لا تغضب)، ثم ردَّدَ مرارًا، قال(لا تغضب) رواه البخاري ، وتكرار الوصية يدل على عظم خطر الغضب وأنه يفضي إلى أمور لا تحمد عقباها ، فترك الغضب يعتبر بحد ذاته نوع هام من أنواع الأخلاق الفاضلة، باستثناء ما إن يكون الغضب لله إذا انتهكت محارم الله فهذا غضب محمود ، قال المناوي – رحمه الله –: "حديث الغضب هذا ربع الإسلام، لأن الأعمال خير وشر، والشر ينشأ عن شهوة أو غضب، والخير يتضمن نفي الغضب، فتضمن نفي الشر، وهو ربع المجموع " فيض القدير ٦/ ٥٣٧، ونقل ابن حجر – رحمه الله – عن بعضهم قال: "تفكرت فيما قال أي قول النبي صلى الله عليه وسلم (لا تغضب) فإذا الغضب يجمع الشر كله". فتح الباري ١٠/ ٥٣٦. وعن عمران بن حصين رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال (الحياء لا يأتي إلاَّبخير) رواه مسلم ،والحياء عنصر هام من عناصر الأخلاق . وعن أنس رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال (إنَّ لكلِّ دينٍ خلقًا، وخلق الإسلام الحياء) رواه ابن مجه وصححه الألباني.

وإفشاء السلام مع التبسم خلق عظيم من أخلاق الإسلام، وهو كما قيل مفتاح القلوب، وجذاب النفوس ، فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلَّى الله عليه وسلّم (لا تدخلوا الجنَّةَ حتى تؤمنوا، ولا تؤمنوا حتى تحابوا، أوَلا أدلُّكم على شيء إذا فعلتموه تحاببتم؟ أفشوا السَّلامَ بينكم) رواه ابن ماجه وصححه الألباني .

والخلاصة مما سبق أن الأخلاق الحسنة والمحمودة التي دعا إليها الإسلامُ ورغَّب فيها، وحث على التخلق بها أكثر من أن تحصى، وهي في مجملها ترجع إلى أربعة أصولٍ ، وهي: الحكمة، والعفة، والشجاعة، والعدل.

وهذا اختصار شديد لباب واسع من أبواب الدين،وهو باب الأخلاق ليكون تذكيرا ومفتاحا لم ورائه لمن أراد المزيد.وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه.